

الفنون السومرية

عصر فجر السلالات - (2800 ق.م - 2371 ق.م)

أطلق الباحثون في تاريخ الفن القديم عدة تسميات على أول العصور التاريخية في تاريخ الفن العراقي القديم، فبعضهم سماها بعصر فجر السلالات، وهذه تسمية سياسية فيها إشارة الى السلالات السومرية التي حكمت العراق في تلك الفترة، والبعض الآخر سماها بعض دويلات المدن، نسبة الى دويلات المدن السومرية التي كانت منتشرة في كل أجزاء العراق. بينما أسماها آخرون بالعصر السومري إشارة الى هوية الناس الذين قادوا الحكم في هذه الفترة.

ومهما تنوعت تسميات هذا العصر، فإنه يعتبر مرحلة حضارية لها صلة حضارية قوية بمرحلة العصر الشبهي بالتاريخي السابقة لها، فقد أصبحت الدويلات الصغيرة التي ظهرت في العصر السابق عبارة عن دويلات كبيرة نسبيا منتشرة في كل أجزاء العراق، وأشهرها لكش وأور ونفر والوركاء وريدو في جنوب العراق، وكيش في الوسط (قرب بابل)، وعدد من الدويلات على نهر ديالى شمال شرق بغداد، بالإضافة لمدينة ماري قرب البوكمال، وكان يحكم كلا منها حاكم أو ملك يتم اختياره من قبل الالهة لحكم البلاد نيابة عنها لان مصدر الملوكية في العراق القديم كان سماويا، وهذا الحاكم يجمع بسلطته القضايا الدينية والدنيوية. ودولة المدينة السومرية كانت وحدة اقتصادية وإدارية متكاملة ومستقلة عن غيرها، فكل منها محاطة بسور ضخم لحمايتها، وتحتوي على عدد من المعابد لعبادة الهتها. ولقد قام محاولات من قبل بعض حكام دويلات المدن التي كانت تحارب بعضها من أجل توسيع رقعتها الزراعية لغرض توحيدها تحت ظل سلطة مركزية واحدة، الا أنها باءت بالفشل، لان السومريين فضلوا الاستقلال في دويلات مدن متعددة. لقد بذل السومريون جهودا حثيثة بكل جد ومثابرة في توسيع الزراعة وتنظيم الري، ودعم التجارة الداخلية والخارجية وتنشيطهما. فأوجدوا بذلك ازدهارا اقتصاديا كبيرا، كان له الاثر الكبير في دفع عجلة الحضارة الى الامام وربما بسرعة خيالية.

واختلفت آراء الباحثين حول أصل السومريين، الذين سمو بهذا الاسم نسبة الى اسم جنوب العراق في الكتابات المسمارية (أرض شومر). ذلك المكان الذي ترعرعت وازدهرت فيه الحضارة السومرية بشكل رئيس. فقد اعتقد بعضهم أن السومريين لم يكونوا أصلاً من العراق. بل جاءوا نتيجة هجرة في الألف الرابع ق.م من مناطق جنوب غرب إيران أو من وادي السند، استناداً لبعض التشابهات بين الحضارة السومرية وحضارة هذه المناطق، بينما اعتقد آخرون أن السومريين لم يأتوا نتيجة هجرة للعراق، وإنما كانوا موجودين فيه منذ أقدم العصور، أي أنهم كانوا أصلاً عراقيين.

وفي الحقيقة فإن حضارة السومريين بفنونها المتنوعة لها ارتباطات قوية جداً وواضحة مع فنون العصر الشبيه بالتاريخي السابقة لها. الكتابة السومرية كانت جذورها الأولى في العصر السابق وقد نضجت على أيدي السومريين وفنون العمارة السومرية وخصوصاً مخططات المعابد وأسلوب بنائها يشابه بنظامه المعماري الفني معابد الفترة السابقة. والمنحوتات السومرية سواء أكانت مجسمة أم بارزة تنشئ خواصها الفنية ومواضيعها إنشاداً قوياً مع منحوتات الفترة السابقة حتى فكرة الختم الأسطواني التي انبعثت في الفترة السابقة فقد استمرت نفس المضمون عند السومريين الذين تبنا نفس الديانة وقدموا الطقوس والقربان لاهم آلهة العصر الشبيه بالتاريخي. ولذلك لا يوجد أي شيء يشير إلى ادخال أساليب أو قيم حضارية غربية عن الأساليب المألوفة. لذا فإن من الأرجح أن نعتقد أصلاً عراقياً لهؤلاء السومريين، لأن كل الدلائل الفنية تشير إلى ذلك. أما بصدد التشابهات بين الفنون السومرية وفنون منطقة جنوب غرب إيران أو وادي السند، فيرجع أنها نشأت من تأثير الفنون السومرية بفنون هذه المناطق بسبب الاحتكاك الحضاري ومهما كانت نوعيته.

ترك لنا السومريون هؤلاء الأجداد الأوائل، نتاجاً فنياً متنوعاً. يمكن القول عنه بأنه يتصف بصفة الإبداع والاصالة والغزارة في نفس الوقت. ولعل مرجع ذلك يعود إلى رغبتهم في تخليد أعمالهم السياسية والعمرانية واحتفالاتهم وعباداتهم بصفة منحوتات تذكارية تصور جميع أعمالهم السياسية والعمرانية واحتفالاتهم وعباداتهم بصفة منحوتات تذكارية تصور جميع أعمالهم، لتبقى تذكارة شاخصاً أمام الأجيال القادمة، كي تشهد بتعلق السومريين بقيم السماء والأرض، ولتراها الآلهة التي حرص السومريون على اطاعتها بكل الوسائل فتبارك تلك النشاطات.

كان لابد لنا من تقديم هذه المقدمة التاريخية عن هذا العصر لكون الفن غير منفصل عن التاريخ، ولا يمكن فهم أحدهما فهما صحيحا دون الآخر وغالبا ما كان يقال ان عمل الفن هو ان ينقل رسالة لا زمن لها، غير أنه لا يمكن تفسيره الا عن طريق المعرفة الخالصة تماما بالأحوال التي أدت الى ظهوره، فهو حلقة في سلسلة لا نهاية لها حلقة مرتبطة ارتباطا وثيقا بما سبقه وبما سيعقبه.

يجب يدرس ان الدارس لتأريخ الفن في الفترة السومرية، يجب أن جميع الاعمال الفنية السومرية. حتى إذا كان البعض منها يخالف ذوقنا أو يناقض قوانيننا الحالية لتقييم الجمال، وأول مجل من مجالات الفن السومري كان فن العمارة.